

جماليات التراث الحساني في قصة (المنكسرة) لعبد الله لبويز
The aesthetics of Hassani heritage in the story (The Broken) by
Abdullah Labweez

تاريخ النشر: 2026/04/30

تاريخ القبول: 2026/04/02

تاريخ الإرسال: 2025/01/03

رمضان حينوني¹¹ مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست، جامعة تامنغست، الجزائر ،EMAIL : yassmina.benammar@univ-batna.dz

الملخص

يعد التراث الحساني بمنطقة تندوف أحد أهم مكونات التراث الجزائري الغني بتنوعه ودلالاته ورموزه، ما دفع الأدباء بمختلف أشكال كتاباتهم إلى توظيفه في نصوصهم طلبا للقيمة الجمالية والدلالية التي يكتنزها ويضمهرها. ويهدف هذا البحث إلى بيان جزء من ذلك التوظيف في قصة جديدة للكاتب الناشء عبد الله لبويز. وتوصلت الورقة إلى أن البويز اعتمد تكثيف العناصر التراثية في نصه بشكل لافت، عندما اختار إطارا مكانيا وزمانيا يوائم هذا التوظيف، ويتعلق الأمر ببادية التندوف، ما جعل أضيف على عمله مسحة من الجمال الفني من خلال انسجام عناصر النص. الكلمات المفتاحية: تراث حساني؛ قصة؛ تندوف؛ لبويز.

المؤلف المرسل: رمضان حينوني ، الإيميل .ramdanne@gmail.com

Abstract:

The Hassani heritage of the Tindouf region is one of the components of the Algerian heritage rich in its diversity, connotations and symbols, which has pushed writers in various forms of writing to use it in their texts in search of the aesthetic and semantic value that it contains.

This research aims to explain part of this use in a new story by the emerging writer Abdullah Labouiz.

The article concludes that Labouiz used a remarkable condensation of heritage elements in his text, when he chose a spatial and temporal framework compatible with this use, it is the Tindouf desert, which gave his work a special dimension. a touch of artistic beauty through the harmony of the text elements..

Keyword: Hassani heritage; story; Tindouf; Labouiz.

مقدمة

ازداد اهتمام الأدب بالتراث في العقود القليلة الماضية ازديادا واضحا، يبرره ما يقدمه التراث من مادة قصصية وشعرية مغرية للقراءة، ومشوقة للمتلقي الذي يرى في التراث رمزية لا يخطئها ذهنه، وجمالية تشده إليه، مستحضرا نصين متقاربين أحدهما حاضر والآخر غائب.

في هذا الإطار تأتي قصة المنكسرة لتضعنا أمام لوحات من التراث الحساني من خلال أحداث تجري في ريف من أرياف تندوف، ونحاول من خلالها بيان طبيعة التوظيف الجمالي للتراث في هذه القصة صغيرة الحجم، باستقراء مجموعة من عناصر البناء التي اعتمدها القاص عبد الله لبويز كالحدث واللغة والسرد والحوار.

وتتمثل إشكالية المقال في السؤال الآتي: كيف أسهم التوظيف الكثيف للعناصر التراثية في تشكيل جمالية النص السردي في قصة المنكسرة؟ وما أبرز تقنياته؟

وللإجابة عنها اعتمدنا منهجا وصفيا بآلية تحليلية، وصفيا لكون القصة جديدة ، وبسيطة ف آن معا، وتحليليا من خلال محاولة تفكيك بنية النص إلى أهم عناصرها الأساسية ، للوصول إلى تقريب القصة وآلياتها إلى القارئ.

أهداف البحث:

تهدف هذه الورقة إلى الكشف عن جانب من الجهود التي تبذلها الأقلام المعاصرة في جعل التراث مادة إبداعية، وبخاصة في مناطق لم يحظ التراث فيها بالتفتات مهمة، سواء على مستوى الإبداع شعرا ونثرا، أم مستوى الدراسات الأكاديمية، على الرغم من غناه وتجذره في كل منطقة من الجزائر الشاسعة مساحة والمنوعة ثقافيا.

كما تهدف أيضا إلى بيان كيفية توظيف التراث في رواية جديدة للروائي الجزائري عبد الله لبويز، الذي يحرص على إحياء التراث الحساني بمنطقة تندوف الجزائرية، وهو جزء من التراث الحساني الواسع الذي تعرفه منطقة غرب إفريقيا.

الأبحاث السابقة:

تناولت دراسات كثيرة موضوع التراث، قديما وحديثا، فهو من الموضوعات الشائعة والمطروقة بشكل واسع، غير أن التراث الحساني لم يحظ بكثير اهتمام من الدارسين الأكاديميين، وبخاصة ما تعلق بهذا التراث في المنطقة المستهدفة (تندوف)، وهو ما يفسر قلة المراجع التي اعتمدناها، ومن الدراسات القليلة التي تمكنا من الاطلاع عليها:

- دراسة بعنوان (نظرات في اللهجة الحسانية) للدكتور غالي الزير، وتناول فيها جذور اللهجة الحسانية ومميزاتها وتاريخها وخصائصها والتحولت التي أصابتها من جراء اختلاط الألسن المحلية والأجنبية.

- دراسة بعنوان (جماليات الشعر العربي الحساني)، للدكتورة مباركة بنت البراء، ركزت فيها على الشعر الشعبي الحساني ، وأهم أشكاله وتسميات أجزائه وموضوعاته، والأهم فيه هو كونه شعر تراثي يعود في جذوره إلى تاريخ وصول العرب إلى غرب إفريقيا.

- دراسة بعنوان (التبراع في الشعر الشعبي الصحراوي الحساني) لصاحبها عبد الله لطرش، وفاطمة يحيوي ركزا فيها على هذا النوع الشعبي التراثي من الشعر الحساني الخاص بالنساء في مناسباتهن المختلفة.

ويتقاطع هذا البحث مع الدراسات السابقة في التوظيف التراثي متعدد الأوجه، وإن كانت الدراسات المذكورة تركز على الشعر، فإن دراستنا تهتم بالسرد وهو قليل في البيئة الحسانية مقارنة بالشعر. من هنا تأتي أهمية هذا البحث، إذ يحاول النظر في توظيف العناصر التراثية الحسانية في قصة المنكسرة، وهي قصة حديثة ظهرت عام 2023.

أولاً: لمحة عن التراث الحساني

يتجلى التراث الشعبي لدى المجتمعات العربية والأمازيغية في بلاد المغرب الكبير تجلياً واضحاً في الحياة العامة، وينعكس في الأقوال والتعابير المختلفة شفاهة أو كتابة، كما ينعكس في اللباس والعادات والطقوس الاحتفالية المختلفة؛ فما يزال الإنسان في هذه المناطق مربوطاً إلى ماضيه القريب والبعيد، عازاً إياه ماضياً مجيداً مشرقاً أمام التغيرات الكبيرة التي أدخلها الإنسان في حياته بفعل المدنية وتطور وسائل العيش والاتصال. ولقد ولد الصراع بين الأصالة والمعاصرة اتجاهها نحو الشعور بخطر اندثار العناصر الأصيلة في حياة الإنسان مما يرتبط بعاداته وتقاليده واعتقاده، فاندفع يبحث عما يحاول الزمن القضاء عليه بفعل التقدم، من أجل إحيائه ولو في بطون الكتب إذا كان دوام الحفاظ عليه في شكله الأول أمراً يبدو مستعصياً.

ولا يشذ التراث الحساني البيطاني¹ عن هذه القاعدة، وبخاصة في شقه الأدبي؛ فهو أدب شعبي ظل معتمداً كغيره من الآداب الشعبية الأخرى على الشفوية والرواية، غير أنهما لم يعودا يصمدان أمام التغيرات الحياتية لعموم المجتمع، فانبرى جمع من الأدباء والمثقفين إلى استغلال ما تبقى منه من أجل إنقاذه من الضياع والانحصار " فكلما فقدنا شيخاً، فإننا نفقد مكتبة متنقلة للتراث اللامادي " (لبويز، 2023)، لأن الذاكرة الشعبية لا تستطيع ولو حرصت المحافظة على كل تلك العناصر التراثية كما كانت في زمانها الأول.

ويلاحظ دارس الأدب الحساني أن للشعر بأغراضه المختلفة سيطرة وسطوة لا يضاهيه في ذلك ضرب آخر من ضروب القول، وهي ملحوظة لا توقف عليه حصراً بل تمتد إلى جل الآداب العربية الشعبية، ويذهب محمد رحال في مقارنته بين الشعر الحساني وغيره

البيطان اسم يطلق على المجتمع الحساني الذي يمتد على رقعة جغرافية كبيرة (جنوب المغرب والجزائر وموريتانيا) وله امتدادات خارج هذا الإطار.¹

من الأدب اللمهي العربي إلى أن " الشعر الحساني يتقدم بل يتفوق عليه بفعل ارتباطه الحميم بأصله الفصيح وصدوره عن عقل وفكر مشحونين بثقافة عالمة هي الثقافة العربية الإسلامية" (رحال، 2023) ، وهو رأي له ما يبرره، إذ تعد الحسانية من أقرب اللهجات إلى الفصحى. أما النثر فيميزه الحضور اللافت للأمثال والحكم والألغاز والأحاديث وبعض الأساطير القليلة في البيئة العربية عموماً. فالشعر والمثل والحكمة هي ركائز كل أدب شعبي لما بينها من أوجه التشابه كالتكثيف وإصابة المعاني بأقل التعابير الممكنة وغيرها.

وتمثل منطقة (تندوف) معقل التراث الحساني ومثله في الجزائر، بما تشكله من حضور تراثي في المنطقة، وجدير بالذكر أن " المجتمع الصحراوي في موريتانيا والصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى وأقصى الجنوب الغربي بالجزائر (تندوف وضواحيها)، من أكثر المجتمعات العربية والأفريقية محافظةً على منظومة تقاليدها وأعرافها الاجتماعية والثقافية الصارمة" ،(لاطرس ع و يحيوي ف، 2020) لبعدها النسبي عن التأثير بالثقافة الغربية التي بدأت في الاتساع والانتشار مع حملات الاستعمار المتتالية لتلك المناطق.

ويعمل جمع من المهتمين بالتراث البيضاوي الحساني جاهدين من أجل الحفاظ عليه، ليس بتدوين القديم منه فقط، بل بالكتابة على منواله وجعل الحسانية لغة أدب وإنتاج، فنشروا عدداً من الأعمال الإبداعية والدراسات المتعلقة بالتراث الحساني ومنهم:

- عبد الله لبويز²: صاحب أعمال كثيرة في تدوين التراث ، نذكر منها (قاموس الاستدلال في الحكم والأمثال بلهجة البيضان) الصادر عن دار جودة للنشر والتوزيع، عام 2023، وكتاب (مدرسة تعليم لغن وأوزان) الصادر عن دار بياض عام 2023. وكتاب (دروس المباني في الشعر الحساني) الصادر عن دار جودة عام 2023. وكتاب (حاجيتك ماجيتك) الصادر عن الدار نفسها في العام نفسه.

2 من مواليد عام 1968 بتندوف، حائز على شهادة الدراسات التطبيقية في قانون الأعمال، معد لبرامج إداة الجزائر من تندوف، الأول بعنوان (القول على إيقاع الهول)، والثاني بعنوان (كنوز الأوائل)،. يشارك في مختلف الفعاليات الثقافية في الجزائر وموريتانيا.

- محمد لمين زيني:³ صاحب أعمال كثيرة أيضا منها: (فيض القريحة) الصادر عن دار جودة عام 2023، وفيه جمع لنماذج من الشعر الحساني لشعراء من تندوف، ومجموعة شعرية بعنوان (ترانيم شاعر حساني) من إصدار دار جودة في السنة نفسها.

- خديجة بوصبيح:⁴ الشاعرة الحسانية صاحبة (ديوان الورد) و(باقات عطرة من أعماق فطرة) الصادرين عن دار جودة عام 2023.

- محمد رحال:⁵ وله ديوان شعر بالحسانية بعنوان (شي فايث)، وكتاب (بسيط المعاني في تعريف الشعر الحساني)، وأسطورة شعبية بعنوان (هدارة) وكلها عن دار خيال عام 2023.

وبالعودة إلى عبد الله لبويز فقد ارتأينا أن نسجل بعض الملحوظات حول قصته (المنكسرة)⁶ الصادرة عن دار بياض في أكتوبر عام 2023، محاولين الوقوف على الملامح التراثية التي وظفها القاص؛

ثانيا: ملخص القصة:

تبدأ القصة بالعلاقة القوية بين رجلين أحدهما يدعى (محمد عالي)، والآخر يدعى (نفعي)، يسكنان خيمتين متجاورتين، فجأة يقرر نفعي الرحيل عن المكان إلى آخر؛ وكعادة الخلان لم يشأ أحدهما أن يودع الآخر من دون تذكارات يذكر به صديقه، فقدم (محمد عالي) صندوقا صغيرا محكم الإغلاق، وطلب عدم فتحه إلا عند الشدة والضيق، وقدم نفعي لصديقه حاملة مفاتيح عزيزة عنده، ورثها عن أبيه، شرط أن لا يتنازل عنها لغيره مهما يكن.

شاعر من تندوف من مواليد عام 1955، وهو مرجع في التراث الحساني ودليل متميز في مسالك الصحراء، وخبير بحياة الإبل.

4 شاعرة من تندوف، من مواليد بشار عام 1972، معتمدة بالثقافة الحسانية، وناشطة جموعية، رئيسة سابقة لجمعية تفكومت الثقافية للتراث الحساني وممثلة الجزائر في الاتحاد العالمي لأدباء الحسانية.

شاعر وباحث وإعلامي جزائري من تندوف، حائز على شهادة ماستر في الأدب الجزائري، لديه العديد من المساهمات البحثية والثقافية.

هي قصة صغيرة الحجم، تقع في 53 صفحة من الحجم الصغير، كتبت بالفصحى الممزوجة ببعض العناصر اللغوية الحسانية.

يستقر به الحال بالقرب من خيمة عجوز تدعى (الغالية)، سرعان ما تصبح الخيمتين كأنهما واحدة، فكبر الود بينهما ثم تنبأ له العجوز بمولودة سيرزق بها وتدعى (منينة).. بعد فترة من الوقت يحدث ذلك فعلا، وأثناء اختبار الاسم تقوم النسوة باقتراح ثلاثة أسماء تضرب القرعة لاختيار أحدها، فيستقر الحال على الاسم الذي قالت به (الغالية).

تتجاوز بنا القصة عشرين عاما ليكبر الأولاد، وتتزوج (خديجة) ابنة (نفعي) من (الخطاري ابن لحبيب) الجار الجديد، ثم يحدث لقاء مفاجئ بين نفعي وشاب توسم أنه ابن صديقه (العالى)، فيكون (السالك ابن العالى)، فيسأله عن حال أبيه وأفراد أسرته، ثم يدعوه إلى خيمته، وهناك يقع (السالك) في حب (منينة) ابنة (نفعي)، ويقرر الزواج بها بعد أن يخبر أبويه بلقائه نفعي الصديق القديم، وبجبه لابنته (منينة).

في إحدى رحلاته لجلب الماء من البئر البعيدة، صادف خيمة بها عجوز وثلاث بنات، أكرمنه أيما إكرام، لكن بغرض إيقاع به، فقد دسسن له شيئا في الشراب، بغرض الوقوع في حب أصغرهن (دكالة)، فغاب عن الوعي طويلا ليستيقظ أخيرا ولسم الفتاة على لسانه، ومال إليها ميلا كبيرا، لكنه ما لبث أن أصيب في جسده وهزل وضعف حتى نسي مهمته وأهله، ما جعل أسرته تحتار لأمره وتفتقد وجوده، فترسل خاله خطري للبحث عنه. في طريقه للبحث عن ابن أخيه، مر (خطري) بالخيمة التي استقبلت السالك، فسأل عنه فأنكر الجميع رؤيته، وعندما هم بالانصراف رأى شيئا من أغراضه تحت غطاء، وعندما كشفه وجد ابن أخته فاقدا وعيه في حال يرثى لها، فعجل بحمله إلى خيمته ليهتموا بصحته، ويحضروا له دواء، ليكتشفوا مما تقيأه أنه سحر.

تحسنت حاله بعد ذلك، ليعود إلى وعده القديم بالزواج من (منينة)، فيقوم خاله (خطري) بالاتصال بأهلها ويرتب الأمر، لكن السالك يمر بتجربة قاسية، ذلك أنه يجد خطيبته مع صديقتها وشابين آخرين اعتقد أنهما غريبان عنها، فيصاب بخيبة، فتقلب الدنيا في عينيه إلى حزن ويأس، وعبثا تحاول أمه إقناعه بأن في المسألة سرا ما، لعلهما بأخلاق عائلة (نفعي)، وتمر الأيام ويعرض الزواج على (منينة) من شاب آخر فتصر على الرفض تحت تهديد الانتحار، وتسوء حالتها الصحية تبعا لذلك، ويأتي الفرج عندما يعلم

(محمد العالي) بما حدث، فيخبر الجميع بأن الشاب المعني هو أخو (منينة) من الرضاعة، فتقلب مآسي الشاب إلى فرح إذ علم السبب فبطل العجب.

لكن لقاءه بمن أحب، لم يتم بالسهولة التي كان يظنها، فقد علم أن عائلة نفعي غادرت إلى مكان مجهول، فقرر البحث عنها مهما كلف من جهد، وكان أن فتح له جده من أمه بابا للأمل حين أخبره بمضارب والد (نفعي) القديمة، وتوقع أن يجده هناك، فكان له ذلك بعد جهد كثير.

ثالثا: البناء القصصي

1. بنية الحدث:

تمثل قصة (المنكسرة) مظهرا من مظاهر القص الشعبي الذي يستحضر البيئة البدوية البعيدة عن المدينة وزخمها، فيجعلها ذلك لا تختلف كثيرا عن قصص القدماء التي وصلتنا شعرا أو نثرا عن العلاقات العاطفية بين المتحابين العرب، الممزوجة بالخيال البسيط والحاملة لمجمل القيم الاجتماعية التي يفتخر بها المجتمع العربي. ولكونه قصة شعبية أو حكاية تراثية، فقد اقتصر النص على أحداث بسيطة يمكن حصرها في:

- علاقة الصديقين الوفيين وتقاربهما قلبا ومسكنا، وهو حدث صغير مقتضب، لم يبسط فيه القاص منشأ تلك العلاقة، ولا بعض مظاهرها، وكأنه غير مهم مقارنة بما سيأتي.

- رحيل أحدهما عن غير خصومة أو خلاف، وبشكل مفاجئ، ما أفسح المجال لإظهار حجم المحبة التي يتبادلانها، إلى حد إهداء تذكارات عند كل منهما.

- بلوغ الأبناء سن الزواج، ليقودهم القدر إلى إعادة الصلة بين الصديقين، من دون إعداد منهم أو ترتيب مسبق.

- تخطي المصاعب والأزمات في سبيل الوصول إلى الهدف، من خلال كيد العجوز أولا، ثم رؤية منينة مع الذكور، وما نجم عنه من كدر وحزن.

- غياب أسرة نفعي عن الأنظار، ومرض منينة حزنا على مصير علاقتها بالسالك.

- عودة الصفاء بين أسرتي نفعي والعالي بعد الكشف عن الدواخل وتبرير الأحداث، ومعرفة أسبابها.

هذه الأحداث - كما نرى- تُدخل النص في دائرة القصة الشعبية التي اعتاد عليها العرب عبر الأزمنة، ذلك أنها شبيهة بتلك القصص العاطفية التي تناسب جو الصحراء ومجتمعه، ولا تخرج عن قيمه وعاداته في العلاقات بين المتحابين. وهذه الموضوعات المشتركة بين الشعوب والثقافات البدوية عادة ما تكون أحداثها متشابهة في محاورها الأساسية، أو في هيكلها العام الذي يقطع في الغالب ثلاث مراحل هي:

● حب شاب لفتاة ذلك الحب العفيف الذي لا يتجاوز حدود الأخلاق والتقاليد القبلية.

● عراقيل في سبيل اللقاء والسعادة ، سواء أكانت مقصودة أو عفوية.

● النهاية السعيدة أو التعيسة، بحسب الهدف التربوي أو الاجتماعي الذي يريده القاص أو بناسب الوسط الاجتماعي المستهدف.

وترتبط القصة هنا أيضا بثالوث الحكاية الشعبية ممثلا في: العجوز/ السحر أو

التميمة / والتنبؤ

أ- العجوز:

تظهر في القصة بصورتين: الأولى إيجابية حين انتقل نفعي إلى مكان إقامته الجديد، فوجد الترحاب والألف من (الغالية)، الاسم المختار بعناية ليجسد حسن الجوار والمحبة بين الخيمتين، " كانت الغالية طيبة و(معلومة/ سخية) وكبيرة (الخيم/ الشيم)، ذات تجربة في الحياة، وما لبث أن مضى أسبوعهم الأول حتى أصبحوا كأنهم عائلة واحدة" (ص5). أما الثانية فهي " عجوز ذات منظر ملفت للنظر ومعها ثلاث بنات في قمة الهاء" (ص25) ، لم يسمها كما سعى سابقتها، إشارة إلى سلبيتها وخبثها، فقد وضعت له شيئا في الشراب ليتعلق بإحدى بناتها أدى إلى سوء صحته حتى كاد يهلك، وإن كانت لا تقصد إيذاه.

هذه المعادلة التي كان موضوعها العجوز كأنما أريد لها أن تثبت أن المشكلة ليس في المرأة كونها عجوزا، بل في اختلاف طبائع الناس وطريقة تفكيرهم بصرف النظر عن البيئة التي يمثلونها.

ب--التميمة أو السحر:

يلجأ الإنسان الشعبي إلى التماثل دفعا للشرور وسوء الحظوظ، وهي عادة بشرية قديمة ، تلي حاجات في أنفس أصحابها، واستعان عبد الله لبويز بهذا المظهر الاعتقادي

تجسيدا للحياة البدوية البسيطة؛ حين كُلف السالك بجلب الماء، يقول القاص: "حضر السالك متاعه وكانت لديه (تاسفورة/ كيس) صغيرة فيها سر وضعته والدته له كي يحفظه من كل مكروه" (ص25) ، وليس هذا السر في ظاهره سوى قطعة قماش، لكنه أدرك بعد المغادرة أنه نسبها في خيمته، ما فتح الباب أمام تحقق الشر الذي كان يروم اتقاءه حين وقع في شر العجوز الثانية.

مثل ذلك ينطبق على التذكار الذي تبادله كل من الغالي ونفعي ممثلا في الصندوق الصغير وحاملة المفاتيح؛ فالكاتب لم يذكر شيئا عن وظيفتهما، بل ربطهما بوضعية الحفاظ على التذكار بإصرار وإلحاح، يقول محمد عالي لصديقه وهو يقدم الصندوق الصغير: "لا تفتحه إلا عندما يشتد بك الحال وتضيق عليك الدنيا" (ص3)، ويقول نفعي وهو يقدم له حاملة المفاتيح: "إنها جماعة (حمة) وهي (حبس) عليك، ولا تعطها لأي أحد أبدا كائنا من كان محدك على جرايد الدنيا" (ص3) ما يرجح فرضية اعتبارهما تيميتين أكثر من كونهما تذكارين، إذ يحرص كل من الصديقين على سلامة الآخر وبقاء وده، إذ إن الاعتقاد بالتيمية هو اعتقاد بأرواح خفية تقوم على حفظ حاملها وحراسته من تدخل الأعداء والخصوم والحاسدين، وكل مصدر للشر، وتتميز التيمية في الممارسة الشعبية بخاصية الصغر والاختباء، إذ يخفيها حاملها في مكان لا تكون عرضة للنظر إليها أو اكتشافها.

أما ضد التيمية فهو السحر الذي يعد منفذا لإيذاء الآخر أو السيطرة عليه بقصد تحقيق غاية معينة، وقد رأينا كيف نجحت العجوز الثانية في السيطرة على السالك بوضع شيء في ما قدمته له من لبن كان في حاجة إليه، وما كانت لتصل إلى ذلك لولا نسيانه لتيميته التي أعدت خصيصا لمثل هذه الأحداث.

يبدو ربط السحر بالعجوز في هذا العمل القصصي ترسيخا للصورة القديمة النمطية المستوحاة من القصص العالمية القديمة، غير أننا نجده في (المنكسرة) بغير الحدة التي نراها في كثير من القصص المشابهة. فالشر الناتج عن السحر في هذه القصة ليس يهدف تدميري أو انتقامي بقدر ما يراد له الاستمالة العاطفية نحو الفتاة بنت العجوز، ويدل على ذلك ما رواه القاص من أن العجوز وبناتها تحبرن في حاله بعد أن طال نومه بفعل اللبن وما احتواه، فهذه الحيرة أو ذاك التخوف إشارة إلى عدم الرغبة في الإيذاء

بل في توجيه السحر نحو هدف محدد هو في طبيعته خير وإن كان يسبب الألم، أو هكذا يبدو لصاحبه.

ج- التنبؤ:

ورد التنبؤ مرة واحدة في النص، وجاء في شكل حلم رآته الغالية جارة نفعي، وأخبرته به قائلة: "لقد حلمت البارحة أن زوجتك قد أنجبت بنتا جميلة تحمل علامة على كتفها الأيمن، وأنها شديدة البياض سوداء العينين، يجب أن لا يراها أحد حتى تتم ستة أشهر، وان اسمها منينة." (ص5).

وإذا كانت الأوصاف الجسدية تبدو واضحة للعيان بعد ميلاد الصبية، فإن التسمية أمكن تعريضها لاختبار صدق؛ قصد معرفة كرامة العجوز وصدق رؤياها، لهذا نجد نفعي يلجأ إلى الاختبار بحضور الأسرة والعجوز في شكل اقتراح ثلاثة أسماء للبنات الوليدة من بينها منينة، الاسم الذي تنبأت به العجوز، ويجرى الاختبار على شاكلة الأزلأم عند العرب قديما وفي المرات الثلاث يخرج اسم منينة، تصديقا للتنبؤ وتعزيزا له.

وظاهرة التنبؤ مظهر من مظاهر الثقافة الشعبية، تسخر عادة لحشد فضول القارئ وإثارة، حين ينبأ بشيء ما يبدو من الغريب المستبعد، أو من الغيب المعنى، فيحدث بطريقة أو بأخرى، وقد رأينا إحدى صوره القديمة في أسطورة أوديب حين أخبر أبوه لايوس بأنه سينجب ابنا يقتل أباه ويتزوج أمه، فحدث ذلك فعلا بالرغم من احتياطات الملك وكيده لمولوده. فالتنبؤ إذن ظاهرة سرديّة ذات صبغة شعبية، على عكس الأدب الرسمي الذي يعتمد عادة على الواقع والمنطق في عرض الأحداث.

2- بنية المعجم:

اختار لبويز لنصه لغة عربية ممزوجة بلهجة حسانية، والحسانية واحدة " من أفصح اللهجات العربية، وذلك بحكم العزلة التي ظلت قبائل بني حسان العربية تعيش فيها في أعماق الصحراء الكبرى. فمادام الاستعمار الفرنسي والاسباني لم يعمر طويلا والدولة العثمانية لم تصل إلى المغرب وموريتانيا، فإن التأثيرات الخارجية قليلة في اللهجة العربية. وإذا استثنينا تعابير أمازيغية وأخرى أفريقية فإن اللهجة الحسانية تعتبر من أقرب اللهجات المعاصرة إلى اللغة العربية الفصحى" (فغرس ع. 2022)، ما يجعل القارئ يفهم

معظم معجمها الذي تميزه ظواهر لغوية مثل التفخيم أو التحريف والتصحييف⁷ تثبت في اللسان منحرفة بالفصحى قليلا إلى دارجة قريبة منها.

إن لجوء عبد الله لبويز إلى المعجم الدارج المشبع بالمحلية، إنما يحاول من خلاله أن يعرف القارئ بالبيئة التي تدور فيها الأحداث، وبطريقة أشبه إلى التعليمية منها إلى العرض الفني. ويبدو أن الكاتب قد قصد إلى ذلك قصدا؛ حتى اضطره الأمر إلى الاستعانة بالهوامش الشارحة لمجمل تلك الكلمات الحسانية التي قد تقف حاجزا دون فهم القارئ غير الحساني. هذه الهوامش التي بقدر ما يحتاج إليها القارئ غير الحساني، فهي من جهة أخرى تسبب له كثيرا من الانقطاع في خلال عملية القراءة، فهي تضطره إلى النظر إلى الهامش في كل وقت وحين ليربط سلسلة الأفكار والأحداث.

وتتوزع المعجم الحساني في القصة على محاور منها:

- معجم الأدوات : تكثر أسماء الأدوات التي يستعملها الحساني في حله وترحاله مثل: كيفور (صندوق صغير)، الطبلية (صينية الشاي)، الرحل (طاولة فراش داخل الخيمة)، لفرنه (ما يوضع بها جمر الشاي)، الرايوز (الكير)، تاسوفرة (حقيبة لباس المرأة)، ازكايب (أكياس)، لمسامة (الهودج)
- معجم الأمكنة السبطي (اسم واد)، فريك (تجمع خيام أي منازل)، أعريكات أصباي (اسم منطقة)، الدشرة (مكان المكار في تندوف)، سوك (سوق)، واد القنطار اسم واد)، المنزل (المكان)
- معجم الحيوان : أبكاري (بنت الناقة)، اللغو (صغار الغنم)، حيتو (إبله)، الطوال (الابل التائمه)، الزيرك (اسم جمل)، لمخنف (اسم جمل)، الزوايل (النوق)
- معجم الكنايات : مولات خيمتو (زوجته)، زغبة لخنافر (أغلى موجود)، كي هيدى (كناية عن بعد المسافة)

⁷ فصل القدماء في هذه العيوب التي تصيب اللغة، منهم ابن حجر في قوله: "إن كانت المخالفة بتغيير حرف أو حروف مع بقاء صورة الخط الأصلي في السياق فإن كان ذلك بالنسبة إلى النقط المصحف، وإن كان بالنسبة إلى الشكل فالمحرف"، ينظر: نزهة النظر. تحقيق عبد الله الرحيلي، مطبعة سفير. - الرياض. ص 29.

يكشف هذا المعجم عن بيئة بدوية صحراوية ببساطتها ومحدودية العناصر المشكلة للحياة فيها، فالأدوات لا تخرج عادة عما يوجد في الخيمة، والأمكنة محدودة أغلبها الوديان التي هي مصادر الماء حين سقوط المطر، والحيوان منحصر في الجمل والغنم، والجمل غالب بكثرة الأسماء التي يوصف بها، أما الكنايات فهي جزء من حديث البدوي، ودليل خبرته في الحياة.

يكشف هذا المعجم عن أصالة الحياة البدوية، وقوة العلاقة بين الإنسان والعناصر المادية والمعنوية التي يحوزها، وهي عناصر ضرورية لا تخرج عن حاجته، ولا يطلب غيرها، فكل عنصر منها يرسم جانبا من ملامح الحياة الصحراوية البسيطة.

3- بنية الوصف والحوار:

أبان النص عن نقص كبير في خاصية الوصف، ما جعل السرد نفسه مقتضبا، ومعلوم أن من عوامل نجاح القصة أن يكون " الوصف مع السرد في تناوب حسب طبيعة الحدث أو الموقف أو تحولات الزمان والمكان. تفهم من هذا أن الوصف عنصر مهم في السرد، لكنه لا يمتلك القدرة على أن يحل محله فيؤدي وظيفته، كما لا يمكن للسرد أن يستغني عن الوصف، فهو مساعد له في تطور الحدث وبناء الشخصية" (الخالدي ن 2021). فالقارئ يشعر أنه ينتقل بسرعة من حدث جزئي إلى آخر، من دون أن يشعر بالارتواء، أو من دون أن يتشبع بالأوصاف الفنية التي تجعله يعيش الحدث العام وكأنه جزء منه.

ويعتمد الوصف على الحواس بدرجة أولى، غير أنه " ليس من الضروري أن يقتصر وصفك على ما هو ظاهري من خلال تقديمك للمرئيات اعتمادا على حاسة البصر، بل بإمكانه أن يتغلغل إلى ما وراء المرئي ليكشف عن المشاعر والانفعالات والمواقف، أي الكشف عن مكنون الشخصية وباطنها" (الخالدي ن 2021). ، وكلاهما كان ناقصا في النص، على الرغم من معرفة القاص لتفاصيل الزمان والمكان والبيئة التي تدور فيها الأحداث.

هل يعود ذلك إلى كون القصة أميل إلى الحكاية الشعبية؟ ربما، ولكن الكاتب كان يمكن أن يعطي الحدث التصوير الخارجي والداخلي الذي يزيد فنيته وتشويق القارئ إليه. فعلى سبيل المثال لدينا المقطع الآتي: (دخل محمد عالي إلى خيمته وأحضر (كيففور)

صغيرا مقفلا ومحكم القفل وأعطاه لنفعي، وقال له: لا تفتحه إلا عندما يشتد بك الحال وتضيق عليك الدنيا، ولا تتركه وراءك في أي سفر تقوم به) (ص3)؛ فكان يمكن أن توصف الخيمة مثلا ظاهريا في إطارها المكاني، وأن يوصف محمد عالي في اللحظة التي أخذ فيها الصندوق الذي يبدو أنه عزيز عليه. والشيء نفسه يقال عن وصف الصديقين الذي اقتصر فيه الكاتب على العمر وعدد الأولاد.

الشئ نفسه نجده في المقطع الآتي (ضاق المكان في اليوم الموالي بفاظمتو، ولم تتوقف عن التحسر ولا عن تذكر الغالية وراغية) (ص11)، فكان يمكن الاعتماد على خاصية الوصف للغوص أكثر في العلاقة الحميمة بين الجارتين، واسترجاع بعض ذكرياتهما فضلا عن وصف شخصيهما، فالوصف إذن يتسع لمجالات سردية كثيرة ويحسن توظيفه واستغلاله.

وانعكس ذلك على الحوار الذي تميز باقتصاد لغوي كبير، فقلما يتجاوز السطر في عموم القصة، ولكونه يرتبط بالشخصيات، فإن دوره مكمل للوصف، دون أن يعني ذلك إمكانية الاستغناء عنه، أو لنقل إنه وصف من نوع ثان " فقد يقدم القاص شخصيته من خلال حوار ما يجسد آراءها في قضية من قضايا الحياة، ويصبح الحوار عند ذاك حاملا من حوامل الملامح النفسية" (حطيني 2014)، وعاكسا للقيم المختلفة التي تحيط بالشخصية.

سنمثل لهذا الاقتضاب بالنموذج الآتي :

- اسمك؟

- رد الشاب: اسمي السالك.

- واسم بوك؟

- اسمو محمد عالي.

نزلت ولأول مرة دموع نفعي وقال له:

- يا ولدي أنا صديق ابيك.

- فرد السالك مسرعا: أنت نفعي؟

يكشف هذا الحوار عن بساطة لها ما يبررها، فالوسط الذي تدور فيه الأحداث بدوي بسيط، لا تعج فيه الحياة بمظاهر التعقيد مثل المدينة، فالبدوي المعتاد على العزلة

والخلاء وقلة الاختلاط بالناس لا يصدر منه عادة كلام كثير، أو حوار طويل، فتغني بذلك كلمات قليلة عن الاسترسال والثثرة.

إضافة إلى ذلك، فقد جاء الحوار مناسباً لطبيعة الشخصيات من حيث المستوى الفكري المرتبط بالبيئة المعنية، ولقد رأينا في المعجم محدودية المحيط وساطة محتوياته، فكان لا بد من أن سنعكس ذلك على الحوار. على عكس حياة المدينة المعروفة بالصحب وكثرة المشاغل والمشاكل أين نجد المرء مدفوعاً إلى الثثرة وسيولة التعبير، تفريغاً لما يثقل على الصدر، وتخفيفاً من هموم الحياة.

ومع ذلك فقد استطاع السرد بوصفه وحواره أن يجعل القارئ يتلمس التراث الحساني الحاضر بقوة في كل جزء من القصة، حتى بدا وكأن القاص يستهدفه استهدافاً لكثرة عناصره المادية وغير المادية.

رابعاً: ثنائية القص والشعر

يستغل لبويز اتساع السرد الذي يستوعب الأجناس الأخرى ليبث بعض المقاطع من (لغن) وهو الاسم الذي يطلق على الشعر في الحسانية، سواء في شكل طلعة (قصيدة) أو قاف (مقطع شعري). أما القافات فكانت ثلاثة، ويتكون كل منها من بيتين اثنين فقط: الأول:

ياالله ماهي مكتوبة ممشاه نفعي ذا الغالي
اعطيه غيبة معلومة كريم معلوم وعالي

الثاني:

تمشي مني ماهي منك ولا هي مني عنها غرشي
لا بدا لي نمشي عنك ولا بدالي عني تمشي

والثالث:

منينة من عند لجواد مولانا وساهنا فينا
مليكة وأميرة لقياد سلطانة هي رجلينا

يستعمل السارد القاف في الظروف النفسية العادية، أو الأقل حدة واضطراباً؛ فالأول حين ودع محمد عالي صديقه نفعي، وفيه مدح وأمل لقاء، والثاني هو موعظة في أمر التسليم بحتمية فراق الأحبة لظرف أو لآخر بالرغم من المحبة وكره النأي والغربة، أما

الثالث ففي مدح خصال المحبوبة (منينة). وهي مواقف -كما نرى- لا تنبئ بالتأزم أو الاضطراب الشديد.

وأما الطلعات فاثنتان، لجأ إليهما السارد عند التعبير عن الخطب الذي ألم ببطل القصة، حين اشتدت الهموم والأحزان، فكأنما بطولهما يتم إفراغ شحنة نفسية ينفس بها (السالك) عما يجيش في صدره. تتكون الطلعة الأولى من اثنين وعشرين بيتاً أوردتها السارد كلها، يقول مطلعها:

اكداث في الكلب تيران وابكات روجي حيرانة
وردت يا عقلي عطشانة وجبرت ظاية نشفانة
وتتشكل الثانية من ثمانية أبيات، يقول في مطلعها:
تعدالك حالك واكلامك ** جمالك ذاتك واوصالك
ما ننساهم ما حدي حي ** معنالك وعقلك واجوابك

استعان لبويز بالطلعتين في ظرفين حرجين نفسياً مر بهما (السالك)، الأول عندما علم أن منينة خطبت وتكاد تختفي من حياته، والثاني عندما عقد العزم على البحث عنها بعد أن رحل أبوها إلى مكان مجهول، فتطلب منه كثير ذلك من الكفاح بحثاً عن مكان نزولها الجديد. فكان توظيف الشعر الشعبي في هذه القصة داعماً للتعبير عن الحالة النفسية لبعض شخوصها، وللدلالة على ارتباط البدوي بفن القول في مختلف المواقف التي يمر بها.

خاتمة:

إن تراث أي مجتمع لا يمكن أن يبرز فقط من خلال الاحتفالات أو المهرجانات الموسمية، أو من خلال الدراسات العلمية، بل إن الأدب لما يمثله من جمال وفن يعد من الوسائل المهمة جداً في نقل التراث والتعريف به والكشف عن كنوزه المعنوية، لهذا نرى توظيفه في مختلف أجناس الأدب قديماً وحديثاً ضرورة فنية، فهو يدفع المتلقى إلى قراءة متميزة للعنصر الثقافي في علاقته مع الإنسان والمحيط النفسي والاجتماعي والإطار الحضاري أيضاً.

ويمكن الخروج بالاستنتاجات الآتي ذكرها:

- استهدف الكاتب إبراز العناصر التراثية في المجتمع الحساني، وسخر لذلك استراتيجية تمثلت في الخروج بالحدث عن إطار زمن محدد، حتى بدت القصة منقطعة عن الحاضر المعيش، كما جعلها خارج المدينة، أية مدينة، لأن الفضاء الريفي يجعل صورة التراث أكثر بروزا وحضورا.

- استعمل القاص لغة وسطا بين اللغة الشعبية واللغة الرسمية، فكانت أقرب إلى الحكاية الشعبية، ما ساعد في تكثيف المادة التراثية، حتى اضطر إلى الاستعانة بالهوامش الشارحة اللافتة للانتباه، والتي بلغ عددها أربعمئة وواحد وعشرين هامشا، أغلبها موادّ تراتبية بشقيها المادي وغير المادي.

- كان يمكن لهذا النص أن يكون أكثر مشهدية وحركية في الأحداث لو أن الكاتب استغل الطاقة الهائلة التي يملكها الوصف والحوار في بناء سرد يذهب بالحدث مذهبا متسعا ومتنوعا، من دون أن يقلل ذلك من الحضور التراثي الذي كان أحد أهم أهداف تأليف القصة.

هذه الدراسة هي الأولى التي تتناول هذه القصة، وهي لا تمثل غير لمسة طفيفة لهذا الإنتاج الجديد لجيل يشعر بخطورة اختفاء التراث وراء مظاهر التمدن الطاغية، ولعلها تنبها للباحثين إلى ضرورة الالتفات إلى النماذج الإبداعية التي توظف التراث بشكل يكشف عن قيمة التراث في حياتنا بوصفه مظهرا ثقافيا متجذرا في هويتنا.

قائمة المراجع:

- فعرس ع. (2022)، المعجم الحساني الجغرافي، أداة لحفظ الثقافة المجالية المبدعة لدى الإنسان الصحراوي. مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل.
- المركز الديمقراطي العربي – برلين. (مجلد 5 عدد 17).
- لبويز ع، 2023، دروس المباني في الشعر الحساني. دار جودة للنشر والتوزيع- باتنة. ط2.
- لاطرش ع و يحيوي ف. 2020، التبراع في الشعر الشعبي الصحراوي الحساني. مجلة آفاق علمية – جامعة تامنغست. (مجلد 12 ع.5).

- رحال م، 2022، بسيط المعاني في التعريف بالشعر الحساني. دار خيال- الجزائر.

- نزهة النظر. تحقيق: عبد الله الرحيلي. مطبعة سفير- الرياض..

- الخالدي ن. الوصف والحوار في كتابة القصة القصيرة. مجلة الكلمة

الإلكترونية ، استرجع بتاريخ 30 فبراير 2024:

<http://alkalimah.net/Articles/Read/21988>

- حطيني ي 2014، دراسات في القصة القصيرة جدا. استرجع بتاريخ 22 فبراير

2024 موقع نور الإلكتروني 2014 5nwgsz noor-book.com/